أبو عمر يوسف بن عبدالبر القرطبي الأندلسى

الفقيه المحدّث والعالم الأديب والشاعر الحكيم

للأستاذ / عبدالله بن سعد الرويشد

مترجمنا هو العلامة : يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي. كنيته أبو عمر، ويلقب بجمال الدين ينتهي نسبه إلى النمر بن قاسط. هذا وقد ولد أبو عمر يوسف بن عبدالبر في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة (٣٦٨هـ) ثمان وستين وثلاثمائة من الهجرة النبوية وقد كان والده من الشعراء الكبار المبرزين في عالم الأدب شعراً ونثراً ولم يأخذ مترجمنا أبو عمر عن والده شيئاً من العلم أو الأدب لأن والده قد مات ولم يبلغ ابنه سن التعليم، فقد رعته عناية الله فالعباقرة جامعتهم الأكواخ، فاليتم أنجب للزمان محمدا، والحقيقة التي تفرض نفسها هي أن الفقر واليتم أستاذان في الدنيا والدين. وقد نشأ أبو عمر رحمه الله في مدينة قرطبة وكانت يومئذ عاصمة الخلافة بالأندلس وعاصمة الدولة ومدينة العلم والحضارة والفكر والثقافة والشعر والأدب وشداته، فقد احتضنت فطاحل العلماء من كل فن

و كان سكانها أصحاب عقيدة سلفية خالصة، فقد أقام بها عدد كثير من التابعين وتابعي التابعين، يدعون الى الله ويبشرون بهذا الدين الاسلامي العظيم وبسنة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وقد سطع في مدينة قرطبة نجوم المعرفة من كل فن، والذين لا شغل لهم إلا التبحر في شتى أنواع العلوم فازدهرت لذلك فنون الآداب والمعرفة وأصبحت مركز الحضارة الاسلامية ولكثرة علمائها واشتهار أهلها بالتمسك بالسنة صار عمل أهلها حجة في بلاد الأندلس فكانوا يحكمون بما حكم به علماء قرطبة وكان الناس يشدون الرحال إليها لرواية الحديث الشريف ودراسة التوحيد والفقه والأدب ومختلف العلوم كالطب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والمعارف وقد امتاز الأندلسيون جميعاً وخاصة أهل قرطبة بالحرص على طلب العلم والتفاني في اقتناء الكتب.

ومن ثم انتشرت المكتبات في سائر الأوساط وكثر الوراقون والنساخ وتنافس الناس في الحصول على نوادر المخطوطات. فأصبح العلماء عند أهل قرطبة مكان التبجيل والتعظيم والإحترام والتقدير يشار إليهم بالبنان ويؤخذ رأيهم في المهمات وهم المرجع في الحل والعقد لأنهم ورثة الأنبياء في هذا الأفق العلمي الزكي الجليل شب ونشأ وترعرع أبو عمر يوسف بن عبد البر رحمه الله وفيه تفقه وأخذ علماً كثيراً من فطاحل العلماء وفحول المعرفة فلازمهم ودأب وجد في طلب العلم والتحصيل لا سيما في علوم التوحيد والفقه والحديث فقد تفنن فيهم وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس فأتقن علوم السنة والقراءة ضبطاً وحفظاً وفهماً حتى حاز على لقب حافظ الأندلس بدون منازع وكان ناصراً للسنة قامعاً للبدعة مستقل الفكر بعيداً عن الجمود ومن ثم كان يكره التقليد فهو عالم متبحر مجدد بارع مجتهد في استنباط المسائل الفقهية والأحكام الشرعية التي يحار فيها العلماء الجهابذة الفحول الأعلام ولم يغادر أبو عمر بلاد الأندلس ولكنه تنقل في أرجائها شرقاً وغرباً فسكن دانية وبلنسية وشاطبة وتولى قضاء لشبونة التي هي عاصمة البرتغال اليوم وكذلك تشترين أيام ملكها ابن الأفطس أما إشبيلية فقد نزلها ولم يطب له المقام بها نظراً لما قوبل به من أهلها

من جفوة وتنكر فارتحل منها منشداً:

تنكر من كنا نسر بقربه
وعاد زعافاً بعدما كان سلسلا
وحق لجار لم يوافقه جاره
ولا لأمته الدار أن يتحولا
بليت بحمص والمقام ببلدة
طويلاً لعمري مخلق يورث البلى
إذا هان حر عند قوم أتاهم
ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلا
ولم تضرب الأمثال إلا لعالم
وما عوتب الإنسان إلا ليعقلا

وقد كانت أشبيلية تسمى حمصاً تشبيهاً بالمدينة المعروفة بحمص الشام المدفون بها سيف الله المسلول الصحابي الشجاع والبطل الهام خالد بن الوليد رضي الله عنه وهكذا نرى أن الحافظ أبا عمر بن عبد البر رحمه الله كان أديباً شاعراً يجهد الفحول والبلغاء في النثر والشعر وقد ألف في ميدان الأدب كتاباً يدل على مكانته السامية في هذا الميدان «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس» ثلاثة مجلدات كبيرة جمع فيها نوادر أدبية وطرفاً جميلة ومن شعره يباهي بالعلم ويحض على طلبه.

إذا فاخرت فافخر بالعلوم
ودع ما كان من عظم رميم
فكم أمسيت مطرحاً بجهل
وعلمي حل بي بين النجوم
وكم من وزير سار نحوي
فلازمني ملازمة الغريم
وكم أقبلت متئداً مهاباً
فقام إليّ من ملك عظيم
وركب سار في شرق وغرب
بذكري مثل عرف في نسيم

وقال في وصية لابنه يحضه على الاستقامة وتقوى الله في السر والعلن ويهون من شأن الدنيا ومتاعها.

تجاف عن الدنيا وهون لقدها
ووف سبيل الدين بالعروة الوثقى
وسارع بتقوى الله سراً وجهرة
فلا ذمة أقوى هديت من التقوى
ولا تنس شكر الله في كل نعمة
يمن بها فالشكر مستجلب النعمى
فدع عنك ما لاحظ فيه لعاقل
فان طريق الحق أبلج لا يخفى
وشح بأيام بقين قلائل
وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى
ألم تر أن العمر يمضي مولياً
فجدته تبلى ومدته تفنى

وللعلامة يوسف أبي عمر بن عبد البر أكثر من خمسين مؤلفاً موسوعياً في الحديث

والفقه والتوحيد والتفسير والتاريخ والأدب. وقد انتهى المطاف بأبي عمر بن عبد البر إلى مدينة شاطبة وبها أدركته الوفاة ليلة الجمعة آخر ربيع الثاني سنة ثلاث وستين وأربعمائة عن خمس وتسعين عاماً رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته ونفع بعلومه المسلمين إن شاء الله.

وخير ما أختم به هذه الترجمة الزكية العطرة هذه القصيدة العصماء الخالدة خلود الزمن والحقيقة والتاريخ إذ هي عقد نفيس من اللؤلؤ والألماس فكلها حكم وعظاة وعبر نتيجة تجربة ومعاناة الحياة إذ تخاطب العقل والوجدان والنفس والروح نعم قصيدة واقعية تتحدث عن الزمان وأهله وصروفه ومتاعبه ومحنه وإحنه ونكباته وآلامه وهمومه فاتركك أخي القارىء الكريم مع القصيدة وأترك القصيدة معك فستحدثك حديث الصادق الأمين من القلب إلى القلب لأن ما خرج من القلب دخل في القلب وما خرج من اللسان فلن يتجاوز الآذان فالعلامة ابن عبد البر أديب العلماء وعالم الأدباء.

من ذا الذي قد نال راحةَ فكرِهِ
في عُمْرِهِ مِن عُسْرِهِ أو يُسره
يلقِي الغنيُ لحفظِهِ ما قد حوى
أضعافَ مَا يَلقِي الفقير لفقره
فيظلُ هذا ساخطا في قِلّه
ويظل هذا تاعبا في كثره
وعبوس وجه الدهر من أخلاقه
فاحذر مكائده وعاجل شره
فهو المنافق لا يزال مخادعا
حتى يُورِّط في حبائل مكره
عمَّ البلاءُ لكل شمل فرقة
يرمي بها في يومه أو شهره
والجن مثل الأنس يجري فيهمو
حكم القضاء بحلوه وبمره
فإذا المريد أتى ليخطف خطفة
جاء الشهاب بحرقه وبزجره
ونبي صدق لا يزال مكذبا
يُرمي بباطل قولهم وبحسره
ومحقق في دينه لم يخل من
ضد يواجهُهُ بتهمةِ كُفره
والعالم المفتي يظل منازعا
بالمشكلات لدى مجالس ذكره
والويل إن زلَّ اللسانُ فلا يُرى
أحد يساعد في إقامة عذره
أَوَ مَا ترى الملكَ العزيزَ بجندِهِ
رهنَ الهمومِ على جلالةِ قَدره
فيسُرُهُ خبرٌ وفي أعقابه
خبرٌ تضيق به جوانب قصره
وموازرُ السلطانِ أهلُ مخاوفٍ
وَإنِ استبدَّ بعزِهِ وبقهره

فلربما زلَّتْ به قدَمُ فلم
يرجعْ يساوي قلامة ظفره
فمثاله إلا كمثلِ سفينةٍ
في البحر ترجف دائماً من شره
إن أدخلتْ من مائِهِ في جوفها
أدخَلَها وماءَهَا في قعرِهِ
فلو استمالَ إلى القَناعة واكتفى
بسدادِ عِيشتِهِ ورثةِ طمره
وأخو العبادة دهرُهُ مُتنغِّصٌ
يَبْغي التَخلصَ من مَخاوفِ قبرِهِ
وأخو التجارةِ حائرٌ متفكرٌ
مما يُلاقي من خَسارة سِعره
وأبو العيال أو الهموم وحسرةُ الر
جل العقيمِ كمينةٌ في صدره
وكل قرينٍ مضمرٌ لقرينهِ
حسداً وحقداً في غناه وفقره
ولربَّ طالبِ راحةٍ في نومِهِ
جاءته أحلامٌ فهام بأمره
والطفلُ من بطن أمِهِ يخرجْ إلى
غصص الفطام تَروعه في صغره
والوحش يأتيه الردى في بره
والحوت يأتي حتفه في بحره
ولربما تأتي السباعُ لميتٍ
فاستخرجَتْهُ من قرارةِ قبره
ولقد حسدت الطيرَ في أوكارِها
فوجدْتُ منها ما يُصاد بوكره
كيف التلذذ في الحياة بعيشة
ما زال وهو مُرَوَّع في أسره
تالله لو عاش الفتي في أهله
ألفاً من الأعوامِ مالكَ أمره
متلذذاً مَعَهُمْ بكلِ لذيذةٍ
متنعماً بالعيشِ مدةَ عمرِهِ
لا يعتريه النقصُ في أحوالِهِ
كلاَّ ولا تَجري الهمومُ بفكره
ما كان ذلك كُلُّه مما يَفي
بنزولِ أولِ ليلةٍ في قبره
كيف التخلصُ يا أخي مما تَرى
صبراً عَلَى حُلْوِ القضاء ومُرِّه
ثم الصلاةُ على النبي وآلِه
مع صحبِهِ والتابعينَ لأمرِهِ

●●●